يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

١٨ اكتوبر . . . . .

كان أول ما فعلت عقب رجوعى إلى مكتبى أن أرسلت فى طلب الشيخ عصفور ، فحضر أمامى مطرقاً صامتاً فابتدرته :

— البنت ريم تعجبك ؟

فرفع رأسه ونظر إلى نظرة أحسست أنها نفذت إلى أعماق نفسى ، ثم عاد فأطرق ولم يجب فقلت له :

— أنا مستعد أن أطلب المأذون وأعقد عليك وعليها

فلم يبد حراكا ، فمضيت أقول :

— لو كانت موجودة هنا كنت حالا . . . .

وجعلت أستحثه على الكلام فلم يخرج عن صمته . وأخيرا ترنم بصوت كالهمس لكنه واضح النبرات :

نهيتك ما انتهيت
والطبع فيك غالب
ودبل الكلب ما ينعدل
ولو علقوا فيه قالب

فلما تمالكت أن صحت :

— إخرس يا بهيم !

وأسرعت بطرده ، وقد تبين لى أن لا فائدة ترجى من مثله . ورأيت أن أسأل حلاق الصحة ؛ فاستدعيته وسألته فى أمر المرأة المخنوقة وكيف صُرح بدفنها بدون إذن النيابة ، فقال من فوره :

— وشرفك يا سيدنا البك ما أعرف إن كانت مخنوقة أو محروقة . حضرة حكيم الصحة أمر بالدفن كالمعتاد

— بدون توقيع كشف ؟

— لو كنا نقعد نكشف يا سعادة البك على كل بنت كان زمانا توفينا من بدرى

— بق بالاختصار لا حد كشف ولا نظر . .

— الجارى عليه العمل يا سعادة البك أن حلاقين الصحة فى الجهات تبلغ حضرة الدكتور المفتش بالتلفون . وحضرته قاعد على مكتبه هنا ما عليه إلا أنه يسأل فى كل حالة عن سبب الوفاة ورد عليه فى التليفون : ماتت يا دكتور موتة ربها

بقوم يقول : ادفن ، ادفن ، ادفن ...

— ما شاء الله ، ما شاء الله ، ما شاء الله !

ولم أر فائدة كذلك من البحث مع هذا الحلاق فأنا أدرى الناس بحلاق الصحة . إن كل مهمتهم أن يقبضوا من أهل المتوفى خمسة قروش ويحصلوا لهم على الاذن بالدفن دون أن ينظروا فى وجه جثة أو ينتقلوا الى منزل . إن هم إلا سماسرة « دفن » ، وحتى مع فرض وجود النزيه منهم الذى يريد القيام بواجبه فيذهب للكشف على الجثة ، ماذا يستطيع مثل هذا الجاهل أن يستكشف ؟ إنه سيرى رجلاً أو امرأة قد فاضت روحها وليس بها إصابات ظاهرة . فكيف يعرف أن الوفاة مشتبه فى أمرها ؟ ! إن « نظام » حلاق الصحة نفسه ، هذا النظام الذى لا تعرفه أية دولة على بسيط الأرض هو موطن الداء . ومثله عندنا نظام « الدايات » وإنى ما زلت أذكر ماقصه علىّ طبيب مستشفى المركز ذات يوم . قال لى إنه دعى الى حالة ولادة عسرة فى احدى جهات الريف ، فذهب مسرعاً فوجد المريضة ملقاة على ظهرها وقد تدلت منها ذراع الجنين وبجوارها عجوز حمراء الشعر والشدقين ، قالت له إنها « الداية » وأخبرته أن المريضة قد مضى عليها ثلاثة أيام على هذه الحال بهذه الذراع الخارجة منها . فسألها لماذا انتظرت كل هذا الوقت ولم تخطرى الطبيب ؟ فأجابت : « كنا منتظرين ستر ربنا ، قلنا ربنا يتمها بالسلامة » . ووضع الطبيب يده فى الرحم فاذا الرحم محشو بالتبن ، وإذا مثانة المريضة قد تهتكت وأنها هالكة لا أمل فيها ، وأن المولود قد مات منذ يومين . وألقى نظرة حوله فاذا كومة من « التبن » القذر عند أقدام المرأة . فالتفت إلى « الداية » الصحية مستفهماً ، فقالت : أصله يا سيدى الدكتور لما دخلت يدى أسحب الولد لقيتها راحت « مزفلطة » ، قمت قلت : « أحرش كفى بشوية تبن » . ومدت للطبيب يداً ملوثة « بالتبن » قد بدت منها أظافر طويلة سوداء . وقال لى الطبيب : « إن الداية تولد المرأة كما لو كانت جاموسة » . وماتت المريضة مع طفلها واكتفت الصحة بأن سحبت من هذه الداية « الصحية » التصريح ... ولكنها لم تغير النظام وهى تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه الصورة فى كل عام

نظرت إلى حلاق الصحة مليا وأدركت أن أرواح الناس فى مصر لا قيمة لها . لأن الذين عليهم أن يفكروا فى هذه الأرواح لا يفكرون فيها إلا قليلاً . وطردت هذا الرجل أيضاً ، وقلت فى نفسى : إن خير السبل فى مثل هذه القضية أن أعرف مرسل البلاغ المجهول . وفكرت لحظة ، وخطر لى أن أعرض خطه على القاضى الشرعى وهو يتحرى لى بين موظفى محكمته وبين المحامين الشرعيين . ولعله هو نفسه قد مر به هذا الخط . ومادمت أعتقد أن صاحب الخطاب أزهرى فليكن البحث فى دائرة المحكمة الشرعية . وطلبت فى الحال عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى وهو من أصدقاء القاضى الشرعى وكلفته أن يرافقنى فى الحال ، ولم يمض قليل حتى كنا فى بناء تلك المحكمة ، فسألنا عن القاضى فدلونا على حجرة أمام بابها « قبقاب » ؛ فهمس عبد المقصود أفندى فى أذنى أن فضيلته لاشك كان يتوضأ كى يصلى الظهر . ومر بنا فى عبارتين مبلغ ورع هذا القاضى وزهده . وضربنا على الباب ودخلنا ، فرأينا القاضى خالعاً جبته وعمامته وهو جالس على حصير الصلاة ، وبين يديه طبق به بلح من نخلة رأيناها مثمرة فى فناء المحكمة . فلما رآنا

نهض وحيانا وأجلسنا على الكراسى وطلب لنا « زنجبيل » ، ورأى عبد المقصود افندى أن يوفر علىّ مؤونة بدء الحديث ، فالتفت إلى القاضى الشرعى وقال :

— البك وكيل النيابة ، غرضه يطلب من فضيلتك ... ...

فأجاب القاضى سريعاً فى شىء من القلق :

— خير إن شاء الله . طلب خصوصى أو ...

وذكرتنى هيأته وقلقه بقصة عنه قصها على المأمور . قال لى يوماً إن المدير اقترح تحسينا لمظهر المركز ومراعاة للصحة العامة إنشاء متنزه فى وسط البلد ، وقد تبرع بعض الأعيان بما استطاعوا التبرع به من مالهم ، وبلغ القاضى الشرعى ذلك ؛ فذهب إلى المأمور وسفه له هذا المشروع واقترح أن يقام بدل المتنزه مسجد لعبادة الله ، وحض الناس على التقوى والصلاح ، فأمن المأمور الخبيث على كلام القاضى وتحمس لرأيه أعظم التحمس ، وقال له :

— لا بد من عرض اقتراح المسجد على سعادة المدير ، وأنا متأكد أنه موافق مقدماً ، وزيادة فى ادخال السرور على قلب سعادته نكتب اسم فضيلتك فى رأس قائمة التبرعات ، باعتبار أنك متبرع بمبلغ خمسة جنيهات . وقد ذكر لى المأمور انه لم يكد يلفظ هذا المبلغ حتى اصفر وجه القاضى ولم يجد ما يقول ولم يستطع أن يسحب اقتراحه وظهر عليه الضيق والحرج ، وقد كان المأمور يتوقع ذلك على الرغم من علمه بيسر القاضى وبسطة حاله . وهذا اليسر لا يبدو على حياته فهو يقطن فى شبه حجرتين ، ويكفيه من الطعام قليل من الجبن مع فجلتين وبلحتين . وقد زاره المأمور مرة فى العيد فوجد حجرة استقباله عبارة عن « دكتين » من الخشب فوق كل منهما فروة خروف قذرة وبينهما حصير قديم . أما المرتب الكبير فهو يكنز برمته إلا جنيهات ثلاثة هى كل نفقات الشهر . وفى آخر العام يشترى بالمال المكنوز عقاراً وطيناً . وهو لا يضع ماله فى المصارف خشية أن يعرف مقداره . ولا يدرى أحد أين يدفنه طول عامه . وأخبرنى المأمور أن القاضى وكأنه لم ينم الليل حضر إليه فى الصباح المبكر يجرى ويقول فى تردد :

— مشروع المسجد بلغته لسعادة المدير ؟

فأجاب المأمور فى ابتسامة خفية :

— طبعاً اليوم آخر النهار أنا ناوى أقابل سعادته ..

فأسرع القاضى فى رفق وتلطف ومال على أذن المأمور كأنما يفضى إليه بسر :

— أرجوك بس . مسألة الخمسة جنيهات ..

— مالها ؟ ..

— لا داعى لذكرها ..

هذه الواقعة تمثلت فى رأسى فجأة عندما قال لنا القاضى فى قاق : « طلب خصوصى ؟ » فقد قرأت ما جال فى نفسه . فهو لا شك قد خاف أن نكون قادمين لطلب تبرع من هذا النوع . فأسرعت أرد إليه الاطمئنان وأخبره أن حضورنا هو لعمل من أعمال وظيفتنا ؛ وأخرجنا فى الحال من ملف أوراقنا الخطاب المنزل وعرضناه عليه وحادثناه فيما نريد منه فانشرح صدره وقال :

— موضوع بسيط . نشرب الزنجبيل أولاً .. ثم ننظر بعد ذلك فى أمر البلاغ . .

وصفق بيديه وصاح :

— يا شيخ حسنين . استعجل لنا الفراش

ثم صمت قليلاً . وعاد فخيانا :

— أهلاً وسهلا . . حصل لنا الشرف . . .

ورأى عبد المقصود أفندى أن يبدى لى صلته بالقاضى ومعرفته له فأشار إليه والتفت إلىّ قائلاً :

— فضيلته من كبار العلماء الراسخين فى العلم

ووجه الكلام للقاضى :

— أنا يا فضيلة القاضى لا أنسى يوم المحاضرة لما رديت على الولد المدرس . .

فقاطعه القاضى مستغفراً مستعيذاً :

— أخزاه الله . أنا لا أطيق الصبر على الكفر والجهل . والتفت القاضى إلىّ وقال :

— تصور يا سيدى اليك أن هذا الأفندى مدرس جغرافيا فى المدرسة الثانوية ألقى فيها محاضرة علنية عن عالم نصرانى اسمه « شنتون » قال إنه قد عرف بالضبط وزن الأرض والسماء . . استغفر الله العظيم . .

وتأملت قليلاً فى الاسم الذى نطقه القاضى . واهتديت آخر الأمر إلى أن المقصود به العالم الرياضى «ايتشتين» ، ولذ لى أن أعرف ماجرى ، فهذا من غير شك صراع بين عقليتين واصطدام بين رأسين يحلو لمثلى دائماً أن يشاهده ويقف على مداه ، فقلت للقاضى فى شىء من الاهتمام :

— وحضرت المحاضرة يا فضيلة الشيخ ؟

— حضرت والأمر لله من قبل ومن بعد

— وماذا حصل ؟

— حصل ياسيدى أن هذا المدرس قام وقال فى حضرة الباشا المدير وكبار الموظفين والأعيان إن هذا العالم الكافر قد أتى بما لم يأت به الأوائل والأواخر ، فقمت وصحت به : « كذاب يا حضرة المدرس ، لقد قال الله فى كتابه العزيز : ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فأسكتنى الحاضرون فسكت تأدباً لوجود سعادة المدير ولولا هذا ماسكت ورب الكعبة ، ثم استمر هذا الأفندى فى كلام لا هو بالمعقول ولا بالمنقول إلى أن قال إن عالمه النصرانى قد استطاع بمعادلات جبرية أن يزن الأرض والسماء ! فما تمالكت نفسى ونهضت وأنا أنتفض وصحت به : « مهلا يا حضرة الأفندى مهلا ، أخبرنا قبل كل شىء ، هل هذا العالم (شنتون) وزن السموات والأرض بالكرسى أو بدون الكرسى ؟ . . . » فارتبك المدرس ونظر إلىّ قائلا : « كرسى إيه ؟ » فرددت عليه بالآية الشريفة : « وسع كرسيه السموات والأرض . . . » أجب أيها المدرس الأفاك ، ها هنا الحاصل والجوهر ، الوزن كان بالكرسى أو بغير الكرسى ؟ . . . .

فكتمت ضحكى وقلت فى هيئة الجد :

— وأخيرا . . . ؟

— وأخيرا يا سيدى . . . لا شىء ، لم يستطع المحاضر أن يجيب ، واحتج وانسحب ، وضج الحاضرون واختلط الحابل بالنابل ، وغضب منى سعادة المدير واعتبرها إهانة لمجلسه ، وترك الناس المحاضرة وهى المسألة الأصلية والتفتوا إلى اعتدائى على مقام المدير وهى مسألة فرعية ، وتكاثروا علىّ يطلبون إلىّ الاعتذار ، فاعتذرت ، ولكن مع ذلك أشعر أن من يومها والباشا المدير لا ينظر إلىّ بعين الرضا . . .

وسكت قليلا ثم قال فى لهجة أخرى :

— بمناسبة الحالة السياسية اليوم . أظن الوزارة الجديدة ستجرى حركة تغيير وتبديل بين المديرين ورجال الادارة كالمعتاد ؟

فلم أكد أفتح فمى لأجيب حتى دخل الفراش وهو نصف شيخ . أعنى انه يلبس العمامة على جلباب

عادى قذر كجلابيب الفلاحين ، وهو عارى القدمين . وقدم لنا فنجانين من طرزين مختلفين قد كسر مقبضاهما . فشربت فى احتراس وأنا أنظر الى داخل الفنجان خشية أن يكون فيه بدل السكر صرصار . وفرغنا من الحديث والزنجبيل وبدأنا العمل . وطلب القاضى أوراقاً بخط موظفيه ضاهيناها بخط البلاغ فلم نجد مشابهة . وعرضنا البلاغ على من فى المحكمة لعل أحداً يذكر لنا أنه يعرف صاحب هذا الخط فلم نظفر بطائل . وخرجنا من المحكمة كما دخلنا . ومشينا فى طريقنا الى دار النيابة . فقال عبد المقصود أفندى :

— نمر بالمرة نفتش سجن المركز ونخلص

فلم أبد اعتراضاً . وذهبنا الى المركز فوجدنا المأمور قد جمع بعض العمد فى حجرته وجعل يشرح لهم وجهة النظر الجديدة ويصدر إليهم تعليماته بنفس الحماسة التى كان يبديها فى مبدء تولى الوزارة السالفة . فما إن رآنى وعلم بالغرض من زيارتى حتى خف لاستقبالى وأجلسنى فى صدر حجرته . وفض مجلسه وهو يشيع العمد الى الباب قائلاً :

— فتح عينك يا عمدة أنت وهو . مرشح الحكومة فى الانتخاب لازم ينجح ، أنا نفضت يدى وأنتم أحرار . مفهوم ؟..

فأجابوا فى صوت واحد :

— مفهوم يا حضرة البك

وتردد أحدهم وقال :

— فيه يا جناب البك جماعة مشاغبين أقويا كلهم مسموعة من العائلة الثانية الكبيرة . . .

فدفع المأمور فى كتفه دفعاً وقال له :

— المشاغبين على أنا !... تفضل

فخرجوا جميعاً . وعاد إلى المأمور يتنفس الصعداء ويقول فى صوت متعب :

— بقى لى يومين بليلتين فى القرف ده

وأردت أن أداعبه وأخيفه قليلاً فقلت :

— لكن انت يا حضرة المأمور معروف عنك انك من حزب الوزارة السابقة

فقال لى على الفور :

— اسكت اعمل معروف . أنا طول عمرى مع الوزارة الجديدة بقلبى ، واللى فى القلب فى القلب ؛ والأعمال بالنيات

فابتسمت وقلت له :

— نترك السياسة ونتكلم فى الشغل

وأخبرته بنتيجة فحص الجثة ووجود العظم اللامى مكسوراً ، وضرورة البحث عن المجرم فى جناية الخنق الجديدة . وطلبت إليه أن يوجه عنايته لمساعدتنا فى الكشف عن الفاعل . فقال فى الحال :

— المركز مش فاضى للخنق والحرق

— عجايب . انتم لكم شغل غير المحافظة على الأمن ؟ !

— يعنى حضرتك مش فاهم ! ...

— لأ مش فاهم ! ...

— نترك الانتخابات ونلتفت للقتل والخنق ؟..

— طبعاً

— ما عنديش أوامر بالكلام ده

وتركنى وجعل يعبث بقيود حديدية وسلاسل معلقة على حائطه . وغمز لى عبد المقصود أفندى كى أغلق هذا الموضوع . وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال :

— البك المأمور يسمح بطلب دفاتر السجن ...

وشعرت أن كرامة عملى فى خطر فصحت قائلاً :

— لابد من أنى أفتش بنفسى السجن والمركز كله

ونهضت فى قوة وعزيمة أزعجت المأمور .

فتردد ثم قال فى رفق :

— تفضل . السجن تحت أمرك . . . انتظر سعادتك دقيقة واحدة

وخرج سريعاً من الحجرة وهو ينادى :

— ياشاويش عبد النبى . . .

واختفى عن نظرى . ودفعنى دافع الى النظر من نافذة للحجرة تطل على فناء المركز . فرأيت المأمور والجاويش يسرعان الى سجن المركز ويفتحانه ويخرجان منه أشخاصاً تدل هيأتهم على أنهم من أهالى النواحى ذوى الرخاء ويزجان بهم فى حجرة النبن والعلف ويغلقان عليهم بابها بالمفتاح . فقلت لعبد المقصود أفندى :

— تعال وطل بعينك ده ولا سجن الباستيل .

المأمور أخفى بعض الأهالى فى أودة التبن

فقال لى عبد المقصود فى شىء من التوسل :

— يا بك ، الوقت بطال ، والسياسة منحكمة فى البلد ، ما فيش داعى للتدقيق . . .

— يعنى نترك الناس فى الحبس من غير جريمة ؟! . .

— يا سعادة البك ، رئيس المأمور هو وزير الداخلية ورئيس الوزراء فى الوقت نفسه ، أما رئيسنا فهو وزير الحقانية فقط ، وقد سبق أن قضاة ووكلاء نيابة وقفوا للادارة فى ظروف سياسية مواقف من هذا القبيل قاموا ثقلوهم الصعيد !

— يعنى نمضى على دفاتر المركز ونسكت ؟ . .

— يا سيدنا البك ، إحنا حانكون أحسن من مين . . . كان غيرنا أشطر . . .

— طيب ، قم استعجل لنا الدفاتر والسلام . .

(يتبع) توفيق الحكيم

بواخر

شركة مصر للملاحة البحرية

لماذا يفضلها الناس ؟

لأنها تفوق غيرها بدقة النظام وجودة الطعام

ولأن جميع أسباب الراحة متوفرة فيها

ولأنها قطعة من مصر

ولأنها بواخر شركة مصرية صميمة